٢ ـ مصـــــطفى كمال *

سيرة حياته

للكاتب الإنجليزى أرمسترونج

تلخيص وتعليق حنفى غالى

وفى ذلك الحين لم يكن يسمع فى موناستير سوى صفير الرصاص ودوى المدافع ، ولم يكن يرى فيها سوى جحافل الجيوش المتأهبة لمقاتلة اليونان الذين استولوا على كريد ، وكان الجو يضطرب باشاعة الحرب واقتراب ساعة الخطر على الأمبراطورية ، وأخذت نسور أوربا تتأهب للانقضاض على الجثة محاولاً كل منها أن يظفر بنصيب الأسد . أما فى داخل الأمبراطورية فهناك فقر مدقع ، وبؤس ملح ، وحكم فاسد ، واستبداد خانق ، أضحت معه حياة الأتراك حلماً مروعاً وكابوساً ثقيلاً ، إذ سلب السلطان عبد الحميد الأتراك أمنهم وحريتهم ، فنشر عيونه فى كل مكان ، وألقى بالأتراك فى أعماق السجون . فعم الذعر وساد القلق كل الناس ، ونادى الشبان بالاصلاح ، واضطرمت النفوس بالثورة ، ولا سيما فى بلاد البلقان حيث يوجد مستودع البارود على وشك الاشتعال عاجلاً أو آجلاً

وكان الشاب مصطفى قد هضم كل الأفكار الحديثة الشائعة فى أوربا فى ذلك الحين وتشبع بها فخالطت لحمه ودمه ، فكان إذا تأمل حالة وطنه وما يقاسيه من ألوان العسف والارهاق غلى مرجل قلبه ، ومنى نفسه أن يكون على رأس ثورة تقتلع الاستبداد من أساسه ، ويكون هو بطلها البارز وسيدها المطاع ، وهكذا تتجلى عظمة بطلنا فى حساسية نفسه الكبيرة التى تأبى أن يطمئن له بال أو يهدأ له ضمير حتى يتحقق مثله الأعلى وغرضه الأسمى فى الحياة .

وفى أيام العطلة كان يذهب إلى سالونيك لزيارة أمه ، ولكنه كان ينأى جهد استطاعته عن الحياة المنزلية ، وظل الصفاء بينهما حتى تزوجت ، فأنكر عليها الزواج ولم يرتح إليه وصارحها بهذا ، فتشاجرا وحل بينهما بعض الجفاء .

وقد تعلم إبان اقامته فى سالونيك مبادئ اللغة الفرنسية بمعونة الرهبان الدومنيكان ، وتعرف إلى شاب يكبره قليلاً يدعى فتحى كان حبيباً أنيس المحضر ، وكانا يقرآن معاً فى شغف شديد أدب روسو وڤولتير وبعض الكتاب الفرنسيين كما قرأ كتب استوارت مل وهبز فى الاقتصاد ، وكان بطلنا لا يني عن حث الطلبة على انقاذ الوطن من استبداد الخليفة ومطامع الدول الأجنبية كما كان يكتب وينظم القصائد النارية متغنياً بجمال الحرية ،

وصاحبه التوفيق فى مدرسة موناستير كما صاحبه من قبل فى مدرسة سالونيكا ، وكتب أساتذته عنه إنه « شاب متقد الذكاء عسير النفس تستحيل مخالطته » وبعد أن أتم دراسته أرسل إلى المدرسة الحربية بالآستانة برتبة ملازم ثان ، وهناك انغمس فى حياة الاثم والفجور من لعب القمار ومخالطة النساء ، ولم يعرف عنه أنه أحب إحداهن ذلك الحب الافلاطونى النبيل ، بل كان يقبل عليهن إقبال النحل على الزهرة يمتص رحيقها ويتركها ذاوية ذابلة ، وقد انصرف فجأة عن هذه الحياة وأقبل على عمله بجد ونشاط ، ووفق فيه توفيقاً بالغاً يعزى قبل كل شىء إلى تعويله على نفسه واعتماده على مجهوده ، وقد جاز كل امتحاناته بتفوق باهر ، ورقى إلى رتبة كبتن سنة ١٩٠٥ ، وكان يمزج السياسة بعمله دائماً ، وقد ألفى نفسه فى الآستانة بين ضباط صغار يقاربونه فى السن ويضطرمون بالثورة على استبداد الخليفة وتدخل الدول الأجنبية . وكان أساتذتهم بالمدرسة يعطفون عليهم ويتغاضون عما يفعلون ، ولكن لا يجرؤون على قيادتهم ومظاهرتهم .

وكان لهؤلاء الضباط بالمدرسة جمعية تدعى جمعية الوطن تلقى الخطب وتذيع النشرات مهاجمة فيها نظام الحكم وأخلاق الموظفين واستبداد الخليفة ورياء رجال الدين ، بل لم يخل الدين نفسه من مطاعنها لحيلولته ـ كما كانوا يعتقدون ـ دون التقدم والارتقاء ، فضلاً عن فساد النظم المؤسسة عليه ، وقد تعاهد أعضاؤها على تقويض حكومة الخليفة واستبدالها بحكومة دستورية ، وإنقاذ الناس من كابوس رجال الدين ، وتحرير المرأة من عبوديتها . والواقع أن تركيا فى ذلك الحين كانت تحتضر ، وما كانت الحياة لتعود اليها إلا إذا لقحت بدم نقى جديد ، وقد انخرط الشاب مصطفى فى سلك أعضائها ، وأخذ يكتب فى نشرتها مقالات نارية وشعراً ملتهباً ، ويلقى فى اجتماعاتها خطباً لاذعة ، ولكن السلطان

(*) أنظر العدد ٦١ من الرسالة

عبد الحميد لم تكن لتخفى عليه خافية ، فعلم بأمر الجمعية من جواسيسه المنتشرين فى كل مكان ، وجزع جزعاً شديداً إذ رأى فيها نواة عمل سينتهى بثل عرشه . فخاطب أحد أعوانه المدعو اسماعيل حقى ، وتحدث هذا بشأنها الى ناظر المدرسة الحربية بالاستانة ، فحرم الناظر عقد اجتماعاتها ، ولكن لم يفت هذا فى عضد أعضائها الثائرين ، فأخذوا يعقدون اجتماعاتها فى الخارج ، وأضحت احدى تلك الجمعيات السرية المنتشرة فى الاستانة تعمل على هدم الظلم ومحو آثاره .

وبعد أن جاز مصطفى الامتحان بمدرسة الاستانة استأجر غرفة لتكون مكتباً للجمعية تطبع فيه نشراتها ، وكان الأعضاء يجتمعون فى منازل خاصة يأتون اليها خفية يترقبون ، وقد ارتاح بطلنا الى هذه الحياة لتأصل حب المغامرة فى نفسه واستقراره فى طبعه ، وأخذ يتعلم أساليب الجمعيات الثورية ونظمها ، ولكن عيون عبد الحميد لم تأل جهداً فى مراقبة هذه الجمعية وتضييق الخناق عليها ليفاجئوا الأعضاء متلبسين بالجريمة ، ولم يكن هذا بالعسير عليهم ، إذ كان الأعضاء ينقصهم الدراية بأساليب هذه الجمعيات ، وإن لم تعوزهم الحماسة والشجاعة .

واستطاع أحد الجواسيس أن يتسلل الى الجمعية ويتصل بها ، وازدادت على توالى الأيام ثقة الأعضاء به واعتمادهم عليه ، فتمت خديعته لهم وجازت حيلته عليهم ؛ وبينما هم يقسمون قسم الجمعية فى يوم من الأيام إذا برجال البوليس السرى يفاجئونهم ويقبضون عليهم ، فزج مصطفى وسائر الأعضاء فى السجن الأحمر بالاستانة ، وكان بطلنا من بينهم مثار الريب والمخاوف ، واعتبر فى عداد الخطرين على النظم القائمة ، فعزل عن زملائه فى مكان قصى ، وتراءى له المستقبل مظلماً قاتماً ، إذ لو بدا لعبد الحميد أنه نذير خطر عليه لاختفى من الحياة كما اختفى أمثاله من قبل كوميض البرق .

وقد راع الأم الحنون مصير ابنها ، فأسرعت يحدوها الأمل والخوف لزيارته ، فأبوا عليها ذلك ولم يسمحوا لها إلا بارسال بعض النقود اليه ، ومضت على حاله هذه أسابيع نقل بعدها الى « زنزانة » ضيقة مظلمة قذرة لاينفذ اليه فيها إلا قبس ضئيل من النور من كوة صغيرة ، فأثر هذا السجن الموحش فى نفسه أبلغ تأثير ، وزاد خلقه غلظة ووحشية .

وفى يوم من الأيام اقتيد من غير انذار الى مكتب رجل من رجال العهد القديم ومن أنصار عبد الحميد المقربين هو اسماعيل حقى باشا ، فأخذ الرجل يديم النظر فى ملامحه ، ثم قال له : «لقد أظهرت مقدرة فائقة وكفاءة ممتازة ، وأمامك مستقبل باهر ينتظرك فى خدمة صاحب الجلالة ، ولكنك من جهة أخرى شنت نفسك ولوثت شرفك الحربى ، فخالطت أسوأ الخلان ، وأخذتم تقامرون وتشربون وتختلفون الى الأمكنة المريبة ، وأشنع من هذا وأشد نكراً أنك نكثت عهد الاخلاص لمليكك ، فزججت بنفسك فى موج السياسة ، وظاهرت الدعاية الخائنة ضده ، وحرضت زملاءك على احتذاء مثالك ، والاقتداء بك ، ولكن جلالة الخليفة قد وسعتك برحمته وشملتك رعايته ومغفرته إذ رآك شاباً أحمق ، لعلك قد انقدت لهواك من غير تبصر أو تقدير للعواقب ، فاختارك للذهاب مع فرقة الفرسان الى دمشق ، ويتوقف مستقبلك على مايعلم من مسلكك ، ولكن عليك أن تتجنب هذا الحمق وتتوفر على أداء واجباتك الجندية ، وخذ لنفسك الحذر فانك لن تحظى بفرصة أخرى » .

وفى نفس الليلة رحل فى سفينة إلى سوريا بدون أن يسمح له برؤية أمه أو أصدقائه ، وبلغ بيروت بعد سفر شاق ، فاستطى جواده وعبر به جبال لبنان حتى انضم إلى الفرقة فى دمشق فوجدها تتأهب للزحف على الدروز القيمين بجنوب دمشق والذين كانوا دائمى الثورة على الدولة العلية ، وقد كانت هذه الغزوة أول تجربة لنشاطه ، ولكنها لم تكن ترضى الجندى النظامى إذ كانت بلاد الدروز عبارة عن جبال مجدبة تتقاطع مع وديان ضيقة عميقة لاماء فيها ولا طريق معبد ، وكان الدروز قوماً أقوياء الشكيمة صعاب المراس دارسين كل شبر من أرضهم ، ومضت الأيام بين الفريقين فى كفاح غير مثمر ، إذ لم يستطع الأتراك الظفر بأعدائهم ، فأحرقوا قراهم ودمروا حقولهم وعادوا القهقرى إلى دمشق لهجوم فصل الشتاء ببرده القارس وجوه المكفهر المظلم ، وهناك أخذ بطلنا الثائر بعد العدة لانشاء فرع لجمعية الوطن ، ولم تغير الأيام السود التى قضاها فى سجن الأستانة منه شيئاً ، ولم تضعف نفسه القوية ، ولم تلن قناته الصلبة ، ولم ترد قلبه الكبير عن غرضه ، إذ كان مصطفى ثائراً على كل شىء : على الدين والناس والنظم

والتقاليد ، ولم يكن لشيء في نفسه حرمة أو قداسة ، ولكنه كان يجمع إلى حماسة الشباب حذر الشيوخ ونظرهم البعيد ، وكان قد هجر الأدب لما وجده مدعاة للشك ، مبعثة للتردد موجباً للخطأ لما بين الحكمة النظرية والحكمة العملية من تناقض ، وأقبل على درس أساليب الثورة ووسائلها ، وقد وجد التربة صالحة للبذر . فصغار الضباط مضطرمون بالسخط ، ورؤساؤهم يعطفون عليهم ويميلون اليهم ، وقد وجد مصطفى من بينهم زميلاً قديماً له ، فاتخذ منه نصيراً ومعيناً له في عمله ، وسرعان ما اشتد ساعد الجمعية وتكاثر عدد أعضائها ، وأخذ بطلنا يشعر بمكانته وخطره ، ولكن سرعان مافطن الى خطئه وثاب الى صوابه ، فعلم أن أهل البلاد ليسوا متهيئين لقبول دعوته . وإن كان ضباط الحامية التركية متأهبين لتلبيتها وإبرازها الى حيز العمل .

وقد أرسل اليه أصدقاؤه يخبرونه بأن البلقان هي مهد الفتن والقلاقل ، وأن عليه أن يسعى لنقله الى سالونيك ليضمن نجاح حركته وانتشار دعوته ، فاعتزم تنفيذ ما أشاروا به عليه ، سواء أجابته الحكومة الى طلبه أم أبته عليه ، وكان صاحب شرطة يافا عضواً بجمعية الوطن ، فاتفق معه على كتمان وجهته ، وحصل على أجازة بضعة أيام رحل في خلالها الى يافا وأبدل اسمه واتخذ له لباساً مستعاراً ، فاستطاع أن يعبر البحر منها الى أثينا ، ثم الى سالونيك حيث ألفى السخط والقلق يساوران كل النفوس ، وهناك اعتكف في منزل أمه ، ووجد أن الجو صالحاً لابلاغ رسالته ، إذ كانت سالونيك قلب الحركة ومهد الثورة ، فأخذ يتعرف بمعونة أمه وأخته الى صغار الضباط من زملائه القدماء ، وطلب نقله الى سالونيك ليتسنى له الاشراف على تنفيذ خطته ، ولكنه قبل أن يخطو خطوة أخرى صدرت من الأستانة الأوامر بالقبض عليه ، فعمل حكمدار سالونيك على خلاصه ، فنبهه الى الخطر المحدق به وأخبره أن أمر القبض سينفذ بعد يومين ، وعليه أن يتأهب للرحيل ، فعاد مصطفى بطريق البحر الى يافا ، وكانت أوامر القبض عليه قد سبقته اليها ، ولكن لحسن طالعه قيض الله له كبير الشرطة في يافا ، وكان عضواً بجمعية الوطن ، فمهد له سبيل الفرار الى غزة ، وأراد أن يحكم الحيلة لتجوز على حكومة الأستانة ، فكتب اليها يطلب أن تزوده بتعليمات أوضح وأدق عن مصطفى كمال ، ويقول إن ما وصل اليه منها فيه كثير من الخطأ ، لأن مصطفى كمال كان طوال المدة السابقة مقيماً في غزة ، ولم يبرحها الى سالونيك ، وصادق على كلامه مفيد لطفي الضابط بغزة .

وهنا تظهر حكمة بطلنا ونظره البعيد . فقد رأى أنه لو وقع في يد عيون الخليفة مرة أخرى ، لما رأى نور الحياة بعد ذلك لحظة واحدة ، فاعتزل الحياة العامة زهاء عام ، ليزيل ما أحاط به من ريب وشكوك ، وأقبل على عمله بجد ونشاط ، حتى لفت أنظار رؤسائه اليه ، فأعجبوا به وأثنوا عليه قائلين . إنه لا يعني بغير واجبه ، وهو يؤديه على أكمل وجه ، وأتم شكل ، فأحسنت به حكومة الأستانة الظن ، ورجحت أن جواسيس سالونيك قد ظلموه باعتباره في عداد الخطرين ، ولكن خيال سالونيك لم يبرح رأس بطلنا ، وأنى له ذلك وفيها نذر الثورة التي يريد مصطفى أن يكون بطلها الذي يشار اليه بالبنان ، وبينما هو غارق في تفكيره وتدبيره إذا به يتسلم أمر النقل الى سالونيك وهو يكاد أن يكون له من المكذبين ؟

يتبع — حنفي غالي

جمعية التربية المصرية

مدارس النيل

مدرسة النيل الثانوية للبنين بشارع شبرا بالدرملي
مدرسة النيل الابتدائية للبنين بشارع مسرة بشبرا
مدرسة النيل الثانوية والابتدائية للبنات وروضة الأطفال بشارع شبرا نمرة (٤٠)
تقدم الطلبات داخلية وخارجية بجميع فرق الدراسة على استمارة تصرف من إدارات المدارس
تليفون إدارة الجمعية (٥٩٠١٥)